بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى أله وصحبه ، وبعد : يعتبر فتح شبه الجزيرة الأيبيرية «إسبانيا» من أروع وأفضل حلقات الفتوح الإسلامية الأولى ، فقد كانت بمثابة تتويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب، ودليلاً على حيوية الشعب العربي وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه .

فبعد فتوح المغرب التي استغرقت نيف ٧٠ سنة ما بين مد وجزر ونصر وهزيمة، وانتهت أخر الأمر بانتصار العرب جاءت هذه القفزة إلى أوروبا ، وصل العرب إلى جبل البرت المعروفة بالبرانس مضيفين بذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع إلى عالمهم الإسلامي العربي .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن الدفع العربي القوى استمر فيما يلى البرت شمالاً فضم الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا، وحكموا نحو عشر مساحتها لمدة نصف قرن من الزمان ثم ارتدوا بعد ذلك إلى جزيرة الأندلس وانتصروا عليها .

ومن الثابت أن شبه الجزيرة الأيبيرية أو الأندلس كان بهذا الوضع متطرف جداً بالنسبة للدولة الإسلامية، فالمسافة بين أقصاه جنوباً ومركز الدولة فى دمشق أو بغداد لا تقل بحال عن سبعة آلاف كيلو متر يستغرق قطعها أربعة شهور على الأقل للفارس المجد.

وهذه المسافة كلها كانت تشغلها شعوب حديثة الدخول فى الإسلام والعروبة هى الأخرى. ومعنى هذا أن الطريق لم يكن سهلاً ولا مفتوحاً فى معظم الأحوال . والمشاكل والمصاعب التى ملأت تاريخ المغرب كله فى فتحه أولاً ثم فى

العصـــور الـــتالية للفتح كانت كلها مشاكل طبيعية ولا بد منها ، لأن دخول هذه الشـــعوب فى دولـــة الإسلام كان تحولاً كاملاً فى تكوينها وإدخالاً لها فى التاريخ ، فكـــان لا بد أن تستغرق العملية زمناً طويلاً ، وكان لا بد أن تمر فى كل الصعاب والمشاكل التى يعرفها كل من يعرف شبه الجزيرة الأيبيرية .

نستطيع أن نتصور إذن وضع الأندلس الذى يقع بعد هذا المغرب كله ويقوم وراء البحر على أرض أوروبية كانت مسيحية قبل دخول العرب ، وظلت مسيحية جـــزئياً طـــوال تاريخها الإسلامى لأن الإسلام ترك الناس أحراراً فى مسألة دخول الإسلام فسارت العملية سيراً بطيئاً وإن كان طبيعياً .

ولقـــد قال المؤرخ الإنجليزى نفيل ياربر : إن الأندلس كانت بالنسبة للعالم العربى بلاد ما وراء البحار . وهذا صحيح وبلاد ما وراء البحار لا بد أن نستطيع الاعـــتماد عـــلى أنفســـها إلى مدى بعيد لأن البلاد الأصلية لا تستطيع أن تواليها بالعـــناية والرعاية، إذ لها هى مشاكلها ، وقد كان من الأساس بالنسبة للأندلس أن يكون هناك اتصال بحرى منتظم بينه وبين بلاد الإسلام.

ولقد وفق الأندلسيون بالفعل إلى إنشاء قوة بحرية تجارية ملأت حوض البحر الأبيـــض نشـــاطاً ، ولكـــن الصلة أتت من الناحية الأخرى، أى من ناحية البلاد المشـــرقية التى لم تكن لها سياسة بحرية مستمرة، فأقتصر الجزء الرئيسى من النشاط الـــبحرى الأندلسى على بلاد المغرب وجزائر البحر، وضاعت الفائدة الكبرى التى كـــان مـــن الممكـــن أن تتحقق لو كان هناك اتصال بحرى منتظم وغزير بين مصر والشـــام من ناحية، والأندلس من ناحية أخرى . وكان لهذا أثره فى مصير الأندلس النهائى.

ولقـــد بذل الأندلسيون جهداً عظيماً فى إقامة وطنهم الأندلسى واستطاعوا رغم صعوبة ظروفهم أن ينشئوا دولة ثابتة الأركان وحضارة زاهرة لا تقل بحال لمن

تحقـــق فى غير الأندلس من بلاد الإسلام والعروبة، ولكن إذا كان ولا بد أن يعيش الأندلـــس فقـــد كان ولا بد من أن يظل الطريق البرى بينه وبين المشرق مفتوحاً ، وقـــد شعر الأندلسيون بذلك واجتهدوا فى الإبقاء على هذا الطريق، ويتجلى ذلك فى الحـــرب الطويـــلة التى قام بها الحكم المستنصر فى المغرب الأقصى بقصد تثبيت أقدامه فيه، ولم يكن المستنصر يكسب شيئاً من المغرب الأقصى، ولكنه رأى أن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب يعطل الطريق، فبذل من الجهد ما بذل وضحى من مال الأندلس ورجاله ما أضعفه للوصول إلى هذه الغاية.

ومـــن الواضح أن قيام الدولة الفاطمية كان له أسوأ الأثر على الأندلس فإن هـــذه الدولة الطارئة عن طبيعة الغرب من كل ناحية كسرت وحده تاريخه وأقفلت الطـــريق وصرفت جهد الدولة الأندلسية والمغربية إلى حروب داخلية عقيمة، فقد قضـــوا كمـــا كان للأغالبة والرستميين والمداريين والأدارسة وأقاموا مكان هذه الـــدول مشيخات قبلية يقوم عليها جند مرتزق فعاد تاريخ المغرب كله إلى الوراء، وأنقطـــع الطريق بين الأندلس والمشرق. وعندما كانت الثورة على العامريين أوائل القـــرن الحـــادى عشر الميلادى تحولت بسرعة إلى حرب أهلية لم تتوقف بعد ذلك أبـــداً، لأن الفـــئات التجارية وهى إمارات الطوائف كانت صغيرة وضعيفة فتغلب عليها العدو واحدة واحدة دون أن يحصل على أى عون من المشرق.

وعلى هذه الصورة نرى أن تاريخ الأندلس فى جملته إنما هو صراع طويل بين شـــعب عفـــى ذى إرادة وحضـــارة قوية من ناحية وظروف غير مواتية من ناحية أخـــرى، ففى حين انقطعت الأسباب بين الأندلس وأمم الإسلام فى المشرق كانت الأبـــواب مفـــتحة عـــلى مصاريعها بينْ إسبانيا النصرانية وبلاد أوروبا المسيحية والبابوية، وفى المواقع الحاسمة التى قررت مصير الأندلس نجد أوروبا المسيحية كلها فى جـــانب والأندلس والمغرب الأقصى أحياناً فى جانب ، وقد كسب المسلمون مع

ذلـــك انتصارات كبرى ولكنهم كانوا يستهلكون أنفسهم وشيئاً فشيئاً لم يعودوا يستطيعون المقارنة.

وتـــاريخ الأندلس على هذا قصة صرح متين أقامه العرب بين فكى الأسد ، وفى قلب بلاد الأعداء، وقصة وحضارة زاهرة تعتبر من أجمل وأطرف فصول تاريخ الحضارة العالمية وتاريخه على هذا صفحة مجيدة من تاريخ العرب العام .

وعـــندما نقول الأندلس فإننا نعنى بذلك ما ساده الإسلام والعروبة ، وخضع لحكـــم إســـلامى من شبة جزيرة أيبريا، ففى دفعة الفتح الدولى كان أسم الأندلس يطابق شبة الجزيرة كله ، ثم انحسر المد العربى فترك الركن الشمالى الغربى، وأقتصر الأندلس على الباقى وبقيت على ذلك إلى نهاية الخلافة الأموية أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ثم أخذت حدود الأندلس تتراجع حتى أقتصرت على مملكة غرناطة فى منتصـــف القرن الثالث عشر وعندما سقطت غرناطة ١٤٩٢ م أى أخر القرن الخـــامس عشـــر اختفى الأندلس كحقيقة سياسية، وإن ظل قائماً كحقيقة تاريخية حضارية.

ولفظ أندلس لم يأت من أندلس بن يافت كما تقول أسطورة أندلسية عربية، بل هوجاء من أسم الوندال وهم فريق – القبائل المتبربرة اقتحمت إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى – واستقر فى طرفيها الجنوبى حيث أقام زمناً طويلاً. فأصبح ذلـــك الجزء الجنوبى يسمى واندالوسى، ثم عبر الوندال إلى الغرب . وكان لهم فيه تـــاريخ طويـــل خلال القرن الخامس الميلادى ولكن أسم وندالوس ظل يطلق على الطرف الجنوبى لشبة الجزيرة، وبهذا الاسم سماها بربر المغرب الأقصى. فلما وصل العـــرب قيل لهم : إن هذا الوندلس وسقطت الواو لأنها أداة تعريف فى لهجة بربر إقلـــيم طنجة فسقطت وعوضت بأداة التعريف العربية ، فقيل الأندلس وبعد أيام العـــرب ظل لفظ أندلس فى صورة أندلوقيا يطلق على ثمان محافظات تقع فى الثلث

الجـــنوبى لشبة الجزيرة وهى : المرية وغرناطة وجيان وقرطبة ومالقة وقادش وولية واشبيلية .

وشبه جزيرة أيبريا وتشمل اليوم إسبانيا والبرتغال إقليم واسع تصل مساحته إلى حـــوالى ٦٠٠٠٠٠ كيـــلو متر وإسبانيا وحدها وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيـــرة تعتبر ثالثة بلاد أوروبا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها حوالى ٥١٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً .

وشبة الجزيرة هى مجموعة عن هضبة متوسطة، ارتفاعها ٦٠٠ متر عن سطح الـــبحر، وهـــى أعلى بلاد أوروبا بأستثناء سويسرا، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ٨٠٠ م وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها إلى ١٦٠٠ متر وزيادة كثيرة .

ونجد الفاصل بين شبة الجزيرة وبقية أوروبا هى جبال البرت أو البرنـــــات أو جـــبل الأبواب التى تسمى بالبرانس وهو تعريب للأسم الأوروبى **Prunaii** وهى جبال عالية عريضة تشقها بعض ممرات جبلية وعرة ولكن ممكن اختراقها من الشـــرق والغرب عن طريقين سهلين ساحليين، ورغم ذلك فهى حد طبيعى فاصل بين من يعيشون جنوبه ومن يعيشون شماله.

ويفصـــل أيبريا عن إفريقية مضيق جبل طارق ولا يزيد اتـــساعه عن ١٤ كيلو متراً ، وفى الأيام الصاحية يمكن رؤية الشاطىء من الناحية الأخرى، وعلى مسافات طويلة يتقارب الشاطئان ، ورغم ذلك فإن ذلك المضيق فاصل طبيعى حاسم، وقد حـــاول العرب إلغاؤه على طول تاريخهم فى الأندلس فلم يستطيعوا، وعاد مضيق جبل طارق بعدهم فاصلاً بين قارتين وحضارتين وعقيدتين .

ويطـــل شـــبه الجزيـــرة على المحيط الأطلسى بواجهه طويلة غنية بالتعاريج الصالحة للمراقى وكذلك واجهتها التى تطل على البحر الأبيض، ولهذا فقد كانت إســـبانيا دائماً بلاداً ذات أهمية بحرية وإن لم يكن شعبها بحرياً كالإنجليز مثلاً ، وقد

أنجبت إسبانيا خلال تاريخها الطويل بحارين، وملاحين مهرة جابوا البحار وشاركوا فى الاكتشافات، وللأسبان دور عظيم فى ميدان صيد الأسماك وهى عماد من أعمدة الثروة هناك.

وأيبريا فى هيئتها العامة مخمس ضخم تشقه سلاسل جبال كبيرة من شرق إلى غرب، وبين كل سلسلة وأخرى يجرى واد فسيح يشقه نهر بفروعه ، وكل سلسلة من هذه السلاسل تتكون من سلاسل جبال متصلة على نسق، وإذا نظرنا إلى شبة الجزيرة من بعيد رأينا مجارى الأنهار وأحواضها تنبع من الشرق وتنحدر غرباً لتصب فى المحيط وقد تتعرف نحو الجنوب عن مصباتها وفى موازة كل نهر من هذه تجرى سلسلة من الجبال. فلدينا سلسلة الجبال الكنتيرية موازية لنهر المنيو «المنتلون» وجنوبى نهر دويرو تجرى سلسلة الجبال الوسطى وجنوبى نهر تاجة تقوم سلسلة جبال أوريتانا وأهم أجزائها جبال طليطلة وجنوبى الوادى أنه تقوم سلسلة جبال بيطرة اللت وأهم أجزائها جبال المعدن وجنوبى الوادى الكبير تجرى سلسلة جبال سيرانيفادا.

أما الأنهار التى تصب فى الشرق فأهمها الأيرو وهو أعظم أنهار شبة الجزيرة وهو يجرى بين جبال البرانس وسلسلة الجبال الأيبرية.

وبقية أنهار الشرق صغيرة إذا قيست إلى أنهار الغرب ولكنها ذات أهمية كبيرة لأن الناحية الشرقية من شبة الجزيرة منخفضة فى مجموعها مما مكن للأنهار من أن تكون أحواضاً واسعة ذات سهول فلدينا التوريا وهو نهر بلنسية، ويروى سهل بلنسية نهر آخر نهر شقر وهناك نهر شقورة وهو نهر مرسية ووادى الأرز Guadal Rorce وهو نهر مالقة.

وأهم سلاسل الجبال من الناحية الحضارية هى سلسلة الجبال الوسطى وتجرى بين نهرى دويره ووادى آنه، وهى تتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى

وتسمى عند العرب بجبل الشارات وأسمها اليوم جواً دراما وهو تعريب لاسم وادى السرمل وهو اسم نهر يمر هناك، فقد كانت هذه الجبال خلال العصور الإسلامية الفاصل الحقيقى بين إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية، وفى معظم فترات تاريخنا نجد الأندلس ما يقع جنوبى جبال الشارات، وإلى شمالها تقوم أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وهى قشتالة أو قشتالة وليون، ونهر تاجه الذى يمر جنوبى هذه الجبال وهو الحد الفاصل الرئيسى لبلد الإسلام، فعليه كانت تقوم طليطلة أكبر عواصم الجزء الشمالى للأندلس وعلى نهر بازو تقع مدريد عاصمة إسبانيا اليوم .

أما أهم الأنهار بالنسبة لتاريخنا فهو الوادى الكبير وعليه وإلى جنوبه يقع الجانب الأكبر من كبريات مدن الإسلام فى الأندلس وخاصة إشبيلية وقرطبة وجيان.

ويلى نهر الوادى الكبير فى الأهمية عندنا نهر أبرو وكانت تقوم عليه سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة ، وتليه فى الأهمية من الناحية الشرقية بلنسية ولقنت ومرسية والمرية ثم مالقة .

وشبه الجزيرة فى مجموعة إقليم جاف، فلا تكثر الأمطار فيه على مدار السنة إلا فى الإقليم الشمالى المطل على خليج بسكاية، أما بقية شبة الجزيرة فلا يسقط عليه أمطار متوسطة ما بين ٤٠ و ٥٠ سنتيمتراً للمتر المربع فى السنة وهناك نحو ٧٠٠٠ كيلو متر لا تمطر تقريباً معظمها فى الوسط الجنوبى والجنوبى الشرقى. ولكن الكثير من الجهات الممطرة لا تزرع بسبب وعورة السطح وتكوينه الصخرى.

وأغنى أقاليم إسبانيا من الناحية الزراعية ثلاث : ما يقع شمال جبال الشارات وحوض الأبيرو وسهل بلنسية . وإذا أمعنا النظر قليلاً وجدنا أن إقليماً واحداً فقط من هذه الأقاليم الزراعية الغنية وهو إقليم بلنسية كان فى يد العرب.

أما إقليم وادى الأبرو فإن معظمه كان فى ممالك إسبانيا النصرانية، ومعنى هذا أنـــه على الرغم من أن النواحى الإسلامية كانت أوسع وأكثر أمتداداً فإن البلاد التى كان يملكها النصارى كانت أغنى، فهنا مناطق القمح الواسعة والمراعى الغنية، ومـــن هـــنا كان غذاء أهل هذه النواحى دائماً أكثر وأحسن، فإذا أضفنا إلى ذلك وعـــورة بلادهم التى شدت من أجسامهم وزادت قواهم تبينا أن إسبانيا النصرانية كانت فى الواقع أغنى وكان سكانها من الناحية البدنية أقوى وأكثر احتمالاً .

وكـــانت إسبانيا على طول تاريخها بلداً يعتمد اعتماداً أساسياً على الزراعة، ولم يـــتغير الوضع وتتحول إسبانيا إلى بلد صناعى إلا بعد الحرب العالمية الثانية وقد أدخـــل العرب إلى إسبانيا طائفة من الزراعات الرئيسية فيها مثل البرتقال والزيتون والأرز والقطـــن، وهـــذه بالإضـــافة إلى القمح هى الحاصلات الزراعية الرئيسية لإسبانيا والبرتغال.

شبه الجزيرة
قبل الفتح الإسلامي

دخـــل العرب إسبانيا سنة ٧١١ م وكانت فى ذلك الحين خاضعة لسلطان القـــوط الغربيين الذين دخلوا إسبانيا فى جملة من دخلها من المتبربرين عند تدهور الإمـــبراطورية الرومانية، وقد دخلها قبلهم من المتبربرين السويق والآلان والوندال والقوط كانوا من أكبر جماعات المتبربرين عدداً وكانوا قد استقروا فى اسكنديفاوه، ومـــنها هاجـــروا إلى الجـــنوب وهم يعرفون فى لغتهم بالجوت أو الجوتان . وقد انقســـموا عـــند الخـــروج من إسكنديفاوه إلى فريقين : الفيزيقوط وصحة نطقه VesuGut أى القوط الفيبون ، والأوسترو قـــوط Austra Gut أى القوط الأذكيـــاء ، ويقـــال إن صحة المعنى هى القوط القصار الفيزيجون والقوط الطوال الاســـتروجوت، ولكـــن الترجمة الشائعة هى القوط الغربيون للفيزيجوت والقوط الشرقيون للأستروجوت والذين يعنوننا هنا هم القوط الغربيون.

وبعـــد رحـــلات وحـــروب طويلة استقر القوط الغربيون فى جنوبى فرنسا وإســـبانيا ثم انفردوا إسبانيا خلال النصف الثانى من القرن الخامس وأنشأوا أسرة مـــلكية أول ملوكها يوريك الذى حكم حتى سنة ٤٨٦هـ وخلفه الأريك الثانى ، وبعـــد قـــرن من استقرار القوط فى إسبانيا تولت الملك أسرة من محاربيهم تعرف بأسرة أتانا جيلدو وكانت عاصمتهم طليطلة وأمتد سلطانهم على شبة الجزيرة كله من جبال البرت إلى الزقاق.

وكـــان القوط مسيحيين ولكن على المذهب الأريوسى الذى يقول بطبيعتين منفصـــلين للمســـيح فى حين أن الكاثوليك والبابوية يقولون بطبيعة واحدة للسيد

المسيح إلهية وإنسانية فى آن واحد. وكان رجال البابوية يعلمون نشطين للقضاء على الأريوسية، وكان رسلهم منتشرين فى إسبانيا وأخيراً استطاعوا إقناع الملك ريكاريدو بترك الأربوسية والتحول إلى الكاثوليكية وكانت ديانه معظم السكان الأصلية فى شبة الجزيرة، وقد تم ذلك وتقرر نهائياً فى المجمع الدينى الثالث لمدينة طليطلة سنة ٥٨٩ م ويعتبر خورخو إسبانيا هذا الحادث حاسماً فى تاريخ بلادهم لأنه حقق الوحدة الدينية.

وفى سنة ٦٨٧ م صار الملك إلى واجباً وكان رجلاً قادراً عاقلاً وقد وقعت فى أيامه غارة عربية سريعة على شرق الأندلس، وخلف واحبا ملك يسمى ويقيرا ويسميه العرب غيطشة وقد اختلف عليه أبناؤه واضطرب الحكم بيده فثار به الكونت رودريجو حاكم قرطبة وعزله وتولى مكانه، وكان غيطشة قد أصدر قوانين ترفع أضطهاد اليهود، فأعادها لذريق وحكم بالعنف والقهر، وكانت النتيجة أن أبناء غيطشة وأهمهم إجيكا الذى يسمى أخيلا وأياس الذى يسمى عباس اتصلوا بالعرب، ووفد منهم وفد ليلقى طارق بن زياد ووعده بالمعاونة ، وهناك أيضاً من يقولون: إن اليهود كذلك أرسلوا وفداً ليقابل طارق بن زياد ويستحثه على فتح الأندلس، ولهذا فإن مؤرخى اليهود يعبرون طارق بن زياد بطلاً من أبطال تاريخهم القومى.

وقد كان لابد أن يستشير طارق بن زياد موسى بن نصير وفى هذه الأثناء تقدم الكونت بليان وأنضم إلى جماعة محرضى طارق بن زياد على فتح الأندلس.

وتذكر المراجع العربية هنا قصة أبنه الكونت بليان التى أرسلها إلى بلاط لذريق فأعتدى هذا عليها فكان ذلك دافعاً لأبيها إلى الانضمام إلى جماعة أنصار بيت عيطشة أولاً ثم إلى العرب ثانياً وهنالك من يقول : إن بليان تجشم عناء الرحلة إلى القيروان ليلقى موسى ويقنعه، فرأى موسى أن يختبر صدقه بتكليفه

بالقيـــام بغارة على الأندلس، ففعل وعاد بغنائم وأسرى فأقتنع موسى وأذن لطارق فى البدء فى الفتح مستعيناً ببليان، فبدأ طارق بإرسال فرقة من جنده يقودها طريف بـــن أبى زرعة فقامت بغارة سريعة على بلد صغير غربى الجزيرة الخضراء، فسمى هـــذا البـــلد طريفة من ذلك الحين وكان ذلك سنة ٧١٠ م . وفى العام التالى بدأ الفتح الإسلامى لشبة الجزيرة . صفوة القول إن مؤرخى إسبانيا يجتهدون فى تصوير ملوك القوط ملوكاً إسباناً وخاصة من أيام ريكاريدو الذى وحد الديانة، ولا مانع من قبول هذا الرأى وإن كان لا بد أن نقول إن القوط أعتبروا أنفسهم دائماً طبقة ممتازة لا صلة لها بعامة الشعب وغالبية مكونة من الأيبيريين الرومان أى أهل البلاد الأصـــليين الذيـــن أخذوا بمظاهر الحضارة الرومانية وليس معنى ذلك أن الأيبيريين تعـــلموا اللاتينية إذا الحقيقة أنهم لم يعرفوها أبداً فظلت لغة الرومان فى معسكراتهم وتعلمها ناس ممن اشتغل بالكتابة فى خدمة الرومان وعرضها رجال الدين، ولم يزد اتصال الأيبيريين بالحضارة الرومانية على ذلك .

ويـــرجع الفضل إلى الرومان فى تقسيم إسبانيا إدارياً وإنشاء الطرق الكبرى وتعمـــير المـــدن الرئيســـية التى كانت كلها مراكز للحكم الرومانى منها برشلونة وطرطوشة وطليطلة وماردة وقرطبة وإشبيلية التى عرفت باسم هيسياليا ومنها جاء اسم إسبانيا الذى أطلق على البلاد كلها فيما بعد.

أمـــا القـــوط الغربيون فهم لم ينشئوا شعباً، ولم يضيفوا إلى تراث الحضارة الإســـبانية شـــعباً ذا بـــال، وعلى أى حال فهم كانوا أغراباً عن البلاد حتى أيام ريكاريدو وهذا الأخير لم يحكم إلا من عشرين سنة قبل دخول العرب ، فلم تتسع أيامه أو أيام خلفائه فرصة لكى يصبحوا إسباناً .

وردريق أو لذريق وهو أخر من حكم من القوط كان رجلاً مستبداً طاغية ، ولكـــن التعصـــب الدينى جعل منه فيما بعد بطلاً إسبانياً . وعلى أى حال فعندما

دخل المسلمون البلاد كانت المسيحية مركزة فى العواصم وكان الكثيرون جداً من أهل البلاد وثنيين أو مسيحيين بالاسم وكانوا جميعاً يئنون من وطأة القوط وظلمهم وضـــرائبهم وكانت المدن فى اضمحلال وانهيار فكان دخول العرب إنقاذاً لها على الحقيقة.

وحـــول فتح العرب لبلاد الأندلس فقد أفاض لنا المؤرخ الأستاذ الدكتور المرحوم حسين مؤنس فى كتابه «موسوعة تاريخ الأندلس» فيقول : أسرع طارق ابن زياد بالتنفيذ بمجرد أن تلقى موافقة موسى بن نصير لأن الظروف كانت مناسبة للقيام بالهجوم الأول، فقد كان الوقت مستهل الربيع لأن شهر رجب ٩٢هـ الذى تحـــدده الـــرواية الإسلامية للفتح يوافق شهرى إبريل ومايو ٧١١ م فى شمال شبه الجزيرة بصد غارة حاولها الفرنجة على إقليم أرغونه وعاصمته بنبلونه «إيمبلونه» .

عـــبر طارق فى رجب ٩٢هـ / أبريل – مايو ٧١١ م مضيق جبل طارق فى قوة يقدر عددها بسبعة ألاف معظمهم من البربر وفيهم عدد قليل من الموالى وعدد أقـــل من العرب الحلفاء، وكان نزولهم على سفح جبل يسمى قلب **Calpe** ولكنه سيسمى من ذلك الحين جبل طارق، ثم سار نحو قرية صغيرة تسمى قرطبة واستولى عـــليها ليؤمـــن رأس القنطرة التى تصل بين المغرب والأندلس ثم أنحدر إلى الجنوب بحـــذاء الســـاحل وأنشأ معسكراً فى مواجهة جبل طارق تجاه جزيرة صغيرة تعرف بالخضـــراء، وقـــد عـــرف المعسكر الذى تحول فيما بعد إلى مدينة باسم الجزيرة الخضراء وعهد طارق بن زياد إلى الكونت بليان بحراسة هذا المعسكر فى حـــالة ما إذا أضطر العرب إلى التراجع والاحتماء به .

وتســـامع لذريق بخبر نزول المسلمين فأسرع نحو طليطلة عاصمته حيث جمع مـــا تيســـر له من الجند، وفى نفس الوقت طلب طارق مزيداً من الجند، فأرسل له موســـى خمسة آلاف أخرى وبهذا أصبح جيشه ١٢٠٠٠ يضاف إليهم عدد قليل

مـــن أنصار غيطشة ورجال الكونت يليان ، ورأى طارق أن يتريث بعض الشيء قبل أن يغامر بالمسير إلى إشبيلية كما كان يريد.

وتقدم طارق غرباً حتى وصل إلى شاطيء بحيرة ضحلة تعرف ببحيرة الخندق La Tanda وجعـــل إلى غربه سلسلة جبال ريتنى، وفى هذا الموقف انتظر وصول لذريق الذى لم يلبث أن أقبل من ناحية مدينة شذونة على رأس جيش يقال إن عدته بلغت ١٠٠٠٠٠ مقاتل.

وتحـــدد الرواية العربية يوم ٢٨ رمضان ٩٢هـ / ١٩ يوليو ٧١١ م تاريخاً لـــلموقعة الحاسمـــة التى انتصر فيها المسلمون وانفتحت على أثره أبواب الأندلس ولكن الحقيقة أن المعركة دامت أكثر من يوم، وأنها دارت فى كل المنطقة المحصورة بـــين جبل طارق ومجرى نهر الرباط وبحيرة الخندق والتى تمتد إلى مدينة شذونة شمالاً والغـــالب كذلك أن القتال دار فى نواح متعددة من تلك المنطقة وربما وصلت إلى شـــريش، وهناك من يقول إن القتال وصل إلى شريش Terez على أى حال فقد اســـتمر القتال حتى انهزمت القوات القوطية تماماً وتقول المراجع العربية إن لذريق قتل فى المعركة ولكن الغالب أنه نجا فى عدد قليل من رجاله ، وربما يكون المسلمون قد أدركوه عند نهير يسمى وادى الطبين حيث لاقى حتفه، وربما يكون كذلك قد استطاع الفرار إلى الشمال.

المهـــم لدينا أن هذه المعركة قضت على المقاومة القوطية وفتحت الطريق إلى عاصـــمة القـــوط وقد كان لذريق كما قلت غاصباً للعرش أى إن المسلمين على الحقيقة لم تكن أمامهم مقاومة حقيقية بعد ذلك.

وكـــان على طارق متابعة لتعليمات موسى بن نصير أن يعود بعد ذلك إلى المغرب كما فعل عبد الله بن سعد بعد معركة سبيطلة قبل ذلك بخمسة وستين عاماً، ولكـــن العرب تعلموا كثيراً خلال هذه المدة، ثم إن جنود طارق كان لا يمكن أن

يعـــودوا أدراجهم بعد هذا النصر، فلذلك معناه حرمانهم من ثمرة جهادهم. وكان هناك أيضاً أبناء غيطشة وأنصارهم والكونت بليان ومن معه ، وهؤلاء جميعاً كانوا يدفعون بطارق دفعاً إلى أن يواصل سيره فى الأندلس.

ورأى طارق أن الحزم يقضى بالمسير والاستيلاء على عاصمة القوط دون أن يضـــيع وقـــتاً فى الاستيلاء على مدن وقواعد أخرى قبل ذلك، فسار شمالاً بمعظم قوتـــه، وعبر الوادى الكبير غربى قرطبة وأندفع إلى الأمام، وفى نفس الوقت أرسل فـــرقة مـــن جيشه يقودها مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك فاستولت على قرطبة وملكت ناحية قنطرة الوادى وبذلك أمنت طريق عودة الجيش .

ووصل طارق إلى طليطلة ودخلها دون صعوبة قاطعاً بذلك نحو ٦٥٠ كيلو متراً بعد انتصار وادى لكه، وقد وجد المدينة شبه خاليه لأن رجال القوط تسارعوا عندما سمعوا بمسير المسلمين نحوهم فحمل كل منهم ما استطاع، وأخذ عائلته وولى هاربـــاً واســـتولى على سكان البلد على أثر ذلك فزع فهرب الكثيرون منهم من بينهم الأسقف سندرد أسقف طليطلة، فقد حمل ذخائر الكنيسة وولى هارباً فى أتجاه ما يعرف اليوم بوادى الحجارة وبرشلونة ومن هناك إلى روما.

ويضـــيف كلامه فيقول : وقد عجَّل طارق فسار فى أثر الهاربين حتى أدرك الكـــالاد إيـــناريس المعـــروفة بقلعة عبد السلام إلى الشمال الغربى من طليطلة، ثم أدركه الشتاء، فعاد إلى طليطلة وأراح فيها .

ووصـــل خبر هذا النجاح الباهر إلى موسى بن نصير فى القيروان، وهنا نجد نفراً من المؤرخين يذهبون إلى أن الغيرة استبدت بموسى فغضب على مولاه وأرسل إليه يأمره بالوقوف عند هذا الحد وأن ينتظر حتى يقدم هو عليه، ونجد كذلك نفراً آخـــر منهم يقولون : إن موسى غضب على طارق فعلاً ولكن ليس نتيجة للحسد وإنمـــا خوفاً على جند المسلمين من الترامى إلى هذا البعد فى بلد فسيح ودون نظر

إلى العواقـــب، وربما كان رأى هؤلاء الأخيرين هو الأصوب أننا نعلم أن طارقا بعد أن استقر فى طليطلة بعث إلى مولاه بتفصيل ما دار فى الفتوح وطلب إليه مدداً.

ولم يـــتردد موســـى فى المسير إلى الأندلس فى قوة كبيرة ووصل فى الشتاء أواخـــر ٧١١ م وأوائل ٧١٢ م إلى طنجة، وفى يونيو ٧١٢ م (رمضان ٩٣هـــ) عـــبر إلى الأندلس فى قوة تقدر بثمانية عشر ألف رجل غالبيتهم العظمى من العرب هذه المرة، وكان فيهم عدد كبير من كبار رجال القيسية والكلبية وعدد كذلك من التابعين أشهرهم على بن رباح وحنش بن عبد الله الضغانى.

نـــزل موسى فى الجزيرة الخضراء ولم يرَ – بناء على نصيحة رجاله وحلفاء المســـلمين مـــن أهـــل البلاد – أن يفتح جانباً من شبه الجزيرة وهو فى الطريق إلى طليطـــلة، فـــبدأ بالاستيلاء على شذونة واستولى كذلك على حصنين كبيرين إلى جوارهـــا هما قرمونة وقلعة وادى أيره، ثم تقدم نحو إشبيلية وحاصرها حتى سلمت بعـــد وقت قصير وانسحبت حاميتها إلى الغرب إلى مدينة نبلة **Niebla** وهى اليوم من مدن البرتغال.

وتقـــدم موســـى نحو ماردة وكانت من كبار بلاد إسبانيا القوطية، يحيط بها سور كبير حصين، وقد اعتصم بها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم، فحاصرها موســـى واستعمل فى ذلك أدوات الحصار، ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة فى الأرواح ، ولكنهم استمروا فى الحصار حتى استسلم البلد فى أول شـــوال ٩٤ هـــ / ٣٠ يونيو ٧١٤ م ، وقد وجد المسلمون فى ذلك البلد ذخائر وافرة ملأت أيديهم.

وفى شـــهر يوليـــو التالى تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة وخرج طارق بن زيـــاد لـــلقاء مولاه موسى حفيا به ويقال: إن موسى أهانه أو ضربه بالسوط وغير

ذلك، ولكن هذا كله مستبعد، وربما يكون الرجلان قد تعاتبا ، ولكننا نجدهما عقب ذلك مباشرة يسيران معاً لمواصلة الفتوح.

وفى أثـــناء ذلك انتفضت إشبيلية على المسلمين، فعجل موسى بإرسال ابنه عـــبد العزيـــز بن موسى فأطفأ الثورة واستولى على ليلة وباجه واكشونيه، وكانت أكـــبر مدائن الجنوب الغربى لشبة الجزيرة، ومنها يتكون النصف الجنوبى للبرتغال اليـــوم، وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسى من هذه الناحية.

ويذهـــب المؤرخ الإسبانى سافورا إلى أن موسى بعد أن تلاقى مع طارق فى طلـــبيرة تسامع بظهور لذريق تلك القوط فى غرب شبة الجزيرة فى ناحية سلمنكة، فأســـرع إلى هـــناك وتلاقـــى مع لذريق وبقايا القوط فى معركة عند بلدة تسمى Sogoyuela de les cornegos قـــرب قـــرية تمامس Tamames الحالية ، وهـــناك لقى لذريق مصرعه الأخير، ولكن يبدو أن ذلك كله غير صحيـــــــــح و Sogoyuela الـــتى قرأ سافورا أسمها فى مدونة لاتينية قديمة الأغلب أن صحتها Sidonia أى شـــذونة، وعـــلى هـــذا يكون لذريق قد قتل فى معركة وادى لكه الطويلة قرب بلدة شذونة .

ثم عـــاد موسى بن نصير إلى طليطلة وبدأ عمله كأول ولاة الأندلس، وهو دون شـــك أول عـــربى يحكم قطراً أوروبياً، وقد أكد موسى هذا المعنى عندما أمر بضـــرب عمـــلة إسلامية فى دار السكة بطليطلة، ولما كان عمال هذه الدار إسباناً يكتـــبون صـــيغ العملة باللاتينية فقد ظهرت هذه العملة الإسلامية وعليها شهادة الإسلام باللاتينية، فتقرأ على أحد وجهيها:

IN NOMINE DEL : NON DEUS NISI DEUS SOLUS NON DEUS ALIVS.

ونقرأ فى الوجه الثانى :

HIC SOLIDUS FERITUS IN SPANIA ANNO 714.

وأراح موســى فى طليطلة شتاء ٧١٣ م – ٧١٤ م ، ومن هناك أرسل – رســولين إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليحملوا إليه النبأ مع طرف من الذخائر، ويقال إن الرسولين كانا على بن رباح التابعى ومغيث الرومى مولى الوليد.

وعــندما أقبل ربيع ٧١٤ م خرج موسى بجيشه فى اتجاه شمالى شرقى قاصداً سرقسطة، وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة التى تعتبر مفتاح منطقة وادى أبره كــلها وقــام الــتابعى حنش بن عبد الله الصنعانى باختطاط جامع سرقسطة الذى سيصبح من كبار مساجد الأندلس المشهورة.

وعقب ذلك سار موسى نحو لاروة متبعاً الطريق الرومانى الكبير المبلط الذى يعــرف بالطريق القيصرى Via Augasta ويسمى بالعربية الرصيف أو البلاط، وقــد اســتولى موسى على لاروة وبدأ يستعد للسير نحو برشلونة، ويقال : إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى أرغونة ومنها إلى روما.

ويــورد المقرى فى نفح الطيب نصاً يقول : إن موسى كان يزمع الاستيلاء عــلى القسطنطينية من الغرب، وهو إسراف فى حسن الظن، كما هو واضح، لأن المســافة بــين طليطــلة والقســطنطينية لا تقل عن ٨٠٠ كيلو متر كلها جبال ومرتفعات يحتاج قطعاً إلى أعداد وعدد يصعب تصورها.

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال وراء لاروة فقد أقبل إلى معسكره مغيــث الــرومى عائداً من دمشق بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بأن يذهب موســى وطارق معاً إلى دمشق ليقدما بنفسيهما بياناً عن الفتوح إلى الخليفة، ويبدو أن مغيــثاً الرومى لم يكن باراً بموسى فيما نقل إلى الوليد من أخباره، وكان مغيث رجــلاً مــتآمراً قلقاً ، وقد انتهت حياته فى معركة الأشراف فى الغرب الأوسط،

ولكـــن أسرته : بنو مغيث ستصبح من كبار بيوتات الأندلس ومن موالى بنى أمية المقربين .

ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب، ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فـــتح الشمال الغربى لشبه الجزيرة كما فتح الشمال الشرقى، فأمر طارق بمواصلة الســـير على الطريق الرومانى وسار هو مع نهر أيره فى اتجاه الشمال الغربى ثم غربًا بعد ذلك نحو جليقية، فسار بحذاء الجبال الكنتبرية، أما طارق فقد تمكن من إخضاع منطقة أرغونه وعاهد أميرها المسمى فرتون، وقد أسلم فرتون هذا وأصبح جد بنى قســـى الذى سيكون لهم دور كبير فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى ، وبعد ذلك أتجه غرباً ليلحق بموسى فاستولى على حصنى أمايا ثم على مدينة اشترقه **Astorga** وكـــانت مركـــــــز الناحيـــــة التى تسمى فى النصوص العربية إليه والقلاع **Alava-Castilla** وتســـمى فى الجغرافية التقليدية الإسبانية بأقليم قشتالة القديمة وآخر ما استولى عليه طارق كان بلدة ليون، قرب برغش الحالية.

أما موسى فقد سار أول الأمر بحذاء ايرو الأعلى فى اتجاه منبع النهر ثم اتجه إلى الشـــمال عابـــراً الجبال الكنتبرية، ودخل إقليم اشتورياس فاستولى على ابيط ووصـــل إلى ساحل خليج بسكاية عند خيخون، وهرب أهل الناحية وبقايا القوط شرقاً نحو البلدة المسمى حالياً كنجاس أونيس **Cangas de Onis** ووراءها تقوم مـــنطقة جبلية وعرة ترتفع فيها ثلاث قمم عالية تسمى بقمم أوروبا **Los picos de Europa** .

وعـــندما وصـــل موسى إلى ساحل خليج بسكاية وقائدة طارق إلى مداخل إقلـــيم جليقية شعر موسى أنه أتم فتح شبة الجزيرة وأنه يستطيع بعد ذلك أن يلبى أمر الخليفة الوليد.

وهكـــذا نرى هذين الفاتحين العظيمين يأخذان طريق العودة إلى المشرق فى ذى القعدة ٩٥ هـــ / سبتمبر ٧١٤ م ، وقد خلفا الأندلس وراءهما بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية، ففى بحر ثلاث سنوات من الجهد المتصـــل والحـــركة الدائمة استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠٠٠٠ مقاتل أن يفتحوا قطراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصـــعب الأقطـــار الأوروبية من الناحية الجغرافية الطبيعية، وقد قام المسلمون بهذا الفـــتح بشجاعة تعتبر مضرب المثل، ومسارا على خطة عسكرية وسياسية واضحة ترك على خبرة بعيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادات خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وعمرو ابن العاص وأبى عبيدة الجراح.

وقد خلف موسى ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس مكانه، فإذا اعتـــبرنا طـــارق بن زياد أول ولاة الأندلس كان عبد العزيز هو الثالث، وقد بدأ ولايته فى سبتمبر سنة ٧١٤ م .

وقـــد ذكـــرنا فيما سبق ما أصاب موسى على يد سليمان بن عبد الملك ، ويقال : إن طارق بن زياد شكا لسليمان سوء معاملة موسى إياه واختصاصه نفسه بخـــير الأســـلاب والمغـــانم وخاصـــة مائدة سليمان التى طار صيتها فى الروايات الإسلامية، وما هى فى الحقيقة إلا مذبح كنيسة طليطلة أى المنضدة التى يقف عندها

القـــس ليقـــوم بالصـــلاة، وكانت منضدة غالية محلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

وعـــلى أى حال فإن سليمان بن عبد الملك ، وكان عدواً لكبار رجال دولة بـــنى أمية وكبار الفاتحين، لم يستطيع تقدير طارق العظيم، فأنزوى هو الآخر ومات فى خمول .

وببداية حكومة عبد العزيز بن موسى يبدأ فى تاريخ الأندلس عصر الولاة ، أى الـــولاة الـــتابعون للحكومة المركزية فى دمشق، وتستمر هذه الفترة حتى سنة ٧٥٨ م وهى السنة التى قامت فيها إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

ولكن عبد العزيز أنفق معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبة الجزيرة، فإن الفاتحين الكبيرين قضيا على ورث القوط ووصلا إلى الحدود فى كل ناحية، وبقيت بعـــد ذلك أجزاء كامله — شبة الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتح — وكان لا بد من استكمال فتحها، وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى ، ولهذا فنحن نعتبره ثالث فاتحى الأندلس ، ونعتبر فترة الولاة تبدأ بانتهاء ولايته سنة ٧١٦ م .

ولايـــة
عبد العزيز بن موسى

واستكمال فتح الأندلس ٧١٤ م – ٧١٦ م

ونلاحـظ أثـناء الشـهور الأخيرة لموسى وطارق أن فتح الأندلس أثار فى المغرب كله حركة كبرى، فتسابق الناس إلى العبور إلى تلك الأرض الجديدة الغنية ليستقروا فى نواحيها ويصيبوا من خيراتها، ويقول الرازى: إن الناس عبروا على كل ما يستطاع العبور عليه حتى جذوع الأشجار، ولهذا فإننا نجد فى شبه الجزيرة ابتداء من أيام عبد العزيز بن موسى ألوفاً بعد ألوف من المهاجرين الجدد ينساحون فى كل ناحية من نواحى شبه الجزيرة، وفى بعض الأحيان نجد بطوناً بأسرها من قبائل بربرية تعبر إلى الأندلس وتستقر فى نواح قاصية مثل قشتالة القديمة، ولكن أكثر الاستقرار كـان فى أحواض الأنهار الأربعة الكبرى: الوادى الكبير والوادى أنة وتاجه وإيرو، وفى أحـواض هذه الأنهار ستنمو الجماعات الإسلامية الضخمة التى ستكون سكان الأندلس الإسلامى.

وكـان عبد العزيز بن موسى يشعر بالفعل أن عليه أن يتم ما تركه أبوه من فـتح ، وقام بجهد كبير فى هذا السبيل ولكن التفاصيل التى لدينا عن أعماله قليلة، فـنحن نعـلم أنه قام عقب توليه الأمر بحملة على غرب شبه الجزيرة ففتح يابرة وشفترين وقلمرية، وفى نفس الوقت كان قواده يستكملون فتح الشمال الغربى من شبة الجزيرة إلى جبال البرت واستولوا على برشلونة وطرطوشة وجرونة وأرغونة، وهذه الأخيرة تقع شمالى الجبال وفى جنوبى فرنسا.

وقـام عبد العزيز بن موسى بنفسه بحملة واسعة على شرق الأندلس ففتح البيرة وهى بلدة كانت تقوم على مقربة من موقع غرناطة، وكانت غرناطة إذ ذاك

قـــرية صغيرة جداً فلم يعظم أمرها إلا فيما بعد، وإلى أواخر القرن العاشر الميلادى كـــانت الـــبيرة لا غرناطة هى عاصمة ذلك الإقليم ، وقد أطلق أسمها على كورة واسعة تشمل حوض نهر شنيل فرع الوادى الكبير.

ومـــن هـــناك اتجه عبد العزيز شرقاً نحو ما عرف بعد ذلك بكورة مرسية، وكـــانت تلك الناحية إمارة مستقلة تحت سلطان القوط، وكان يحكمها أمير قوطى يسمى تدميره، وقد أطلق العرب اسمه على الناحية كلها فيما بعد، فإذا احتل تدمير كان المراد مرسية بلداً وكورة.

وقد تفاوض تدمير مع موسى فى الدخول فى طاعة المسلمين محتفظاً باستقلاله فقـــبل عبد العزيز ذلك واشترط عليه دفع جزية مالية سنوية وتسليم سبعة حصون يحتلها الجند العربى ضماناً لوفاء تدمير بتعهده.

وقـــد احتفظت لنا المراجع بنص المعاهدة وهى مؤرخه فى رجب ٩٤ هـــ / أبـــريل ٧١٣م ، ويفهـــم من تاريخها أن مفاوضة سابقة كانت قد تمت أيام موسى وانـــتهت إلى هذه المعاهدة قبل خروج الفاتح الكبير من الأندلس، أما عبد العزيز فقد قام بالتنفيذ.

وكـــانت عاصمة الأندلس الإسلامى فى ذلك الحين إشبيلية وفيها أقام عبد العزيـــز وقـــد سكن فى دار ملحقة بكنيسة تسمى سانتا رُبيه ، حولت إلى مسجد، وتـــزوج بأيـــلونه أو اجيلونة أرملة لذريق ويسميها العرب أم عاصم ، ويبدو أن سلطانها عليه كان عظيماً مما أثار عليه نفراً من قواده، وقد تفاهم هؤلاء مع سليمان ابن عبد الملك على التخلص من عبد العزيز فأغتاله زياد بن عذرة البلوى فى أوائل رجـــب ٩٧ هـــــ / مارس ٧١٦م ، هجم عليه فى المسجد بعد صلاة الفجر، وقد اثار قتله أضطراباً كبيراً بين قواد الأندلس، وانتهى أمرهم إلى أن اختاروا بأنفسهم والياً جديداً هو أيوب بن حبيب اللحمى، وكان ابن أخت موسى بن نصير.

عصر الولاة

٧١٦ م – ٧٥٨ م

تولى أمر الأندلس خلال الفترة ٢٢ والياً ، حكم واحد منهم مرتين، ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالى أقل من سنتين، وهذا وحده يكفى لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

وبعد أن درسنا تاريخ المغرب خلال الفترة نتبين أن ذلك القلق كان هو الأمر المتوقع، فلدينا ا،لاً أضطراب السياسة العامة لبنى أمية بعد الوليد بن عبد الملك ووقوعها فريسة للعصبيات القبلية والشخصية، وكان لا بد أن يكون لذلك كله أثره فى الأندلس كما كان له أثره الذى رأيناه فى المغرب.

وهناك كذلك الخلاف الكبير بين العصبيات العربية فى المغرب، ثم خلاف العرب البلديين مع العرب الشاميين، ثم خلافات هؤلاء جميعاً مع البربر، وكان لابد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس.

وهناك أيضاً التنازع على السلطان بين الطامحين فيه، وقد رأينا ما كان من أمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وابنه عبد الرحمن ، ولدينا فى الأندلس ما يشبه ذلك.

يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته وله ظروفه التى لا تشبه ظروف أى بلد مما فتحه المسلمون فى ذلك الحين ، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد ، ويستوقف نظرنا أن العرب برغم مشاغلهم الكثيرة فى الأندلس استطاعوا أن يواصلوا الفتوح فى غالة نحو ٢٠ سنة بعد تمام فتح الأندلس وكسبوا خلال هذه

الفـــترة انتصارات كبيرة تضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية، ولا يقـــلل من أهمية هذه الفتوح أنها وقفت بعد موقعة بلاط الشهداء ، لأننا سنرى أن المد العربي كان لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية ، كان لابد أن يقف عند نقطة ما، ونقطـــة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم خليل نسبياً بدأوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة .

وهـــناك أخيراً مشاكل الحكم فى الأندلس نفسه، وهو بلد فسيح جداً دخله العـــرب فى وقـــت بـــلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يعالجوا مشـــاكل جمة ، وإن الإنسان ليدهش إذ يرأهم – رغم صعوبة ظروفهم وقلة العون الـــذى تلقوه من الحكومة المركزية – يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقـــاً، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً بل نشروا بينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الرى، وأنشأوا مساجد فى كل نواحى الأندلس تقريباً.

ومـــن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها من التعقيد صار الأمر إلى عبد الرحمن بن معاوية الداخل وهو من عباقرة الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى والعرب من نتائج الاستمرار فى الحرب الأهلية، واحتفظ بثمرات جهود من سبقة من الحكام القادرين ، فلم تضع هذه الجهود كلها هباءً .

ولا يتســـع المجال هنا للكلام بالتفصيل على ما قام به أولئك الحكام خلال فترة الولاة، ولكننا سنكتفى بتتبع ميادين العمل الرئيسية ثم دراسة المشاكل الكبرى التى واجهت الحكم العربى وما قام به الحكام حيالها حتى نصل إلى إمارة عبد الرحمن الداخل.

خلافات العرب
فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر

رأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى ابن نصير فى منتصف ٩٧ هـ/ مايو ٧١٦ م تقريباً، وأيوب بن حبيب يمثل العرب البلديين ، أى العرب الذين قاموا بالفتح واستقروا فى البلاد وأصبحوا بمقتضى هذا يشعرون أنهم أولى بها من غيرهم .

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنفر الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان أملاً منهم فى أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم فى البلاد.

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكماً نحو أربعة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً ذا بال، ولكنه هو الذى نقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، لأن موقعها أكثر توسطاً، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه ، فقد قام يزيد بن أبى مسلم والى سليمان بن عبد الملك على المغرب بتعيين الحر بن عبد الرحمن الثقفى على الأندلس، فكان الحر على هذا يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشامى، مما أبعد عنه العرب البلديين، بدأ الحر ولايته فى ذى الحجة ٩٧ هـ / ٧١٦ م واستمر سنتين وثمانية أشهر لا تنسب المراجع إليه فيها كبير عمل، ولكنه هو الذى أقام دار الإمارة فى قرطبة. وكانت هذه الدار فى مواجهة قنطرة الوادى. وكانت قبل ذلك مقراً للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلد من يده، وقد سكن مغيث فى جانب من القصر عرف ببلاط مغيث، ثم اخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحر بن عبد الرحمن الثقفى زادت عنايته بالقصر

وجعله قصر إمارة فعلاً وسمى هو والأرض الواسعة الممتدة إلى خربة على ضفة النهر باسم بلاط الحر.

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبد العزيز فى ١٠ صفر ٩٩ هـ/ ٢٢ سبتمبر ٧١٧م ، نظر فى أمور المغرب والأندلس فأقام على الأول إسماعيل بن عبيد الله وعلى الثانى عنبسة بن سحيم الكلابى، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

بدأ عنبسة فى رمضان سنة ١٠٠ هـ / أبريل – مايو ٧١٩ م ، وعلى الرغم من قصر المدة التى تولاها فإنه من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية فهو أول من نظر فى حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح منها صلحاً مما فتح عنوة، وبدأ باستخراج الخمس من العنوة ليجعله ملكاً للدولة، وأتم هذا فيما يتصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فتح عنوة، وقد خرجت فى الخمس أرض واسعة أنشأ الحر فى بعضها مقبرة للمسلمين وزرع الباقى على الزراع على أساس المزارعة أى المناصفة فى الغلة ، ثم أعاد بناء قنطرة الوادى وكانت قد تصدعت .

وفى ربيع سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م خرج عنبسة غازياً فى غالة فأستشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من العام نفسه، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الله ، وهو أعظم الصالحات .

وقد كان عمر بن عبد العزيز قد فكر فى إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم فى ذلك الثغر السحيق فى نظره، ولكنه عدل عن هذه الفكرة إذ كان المسلمون قد استقروا فى البلاد وكثروا وبدا نفر من أهلها يسلمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطىء دون شك.

بعد السمح بن مالك وبعد موت عمر بن عبد العزيز عاد الأمر فى المغرب والأندلس إلى الجند الشامى وولاتهم، فثارت خصومات بين الولاة والعرب البلديين، لاتفاق مصالح الجانبين ، وقد بلغ استبداد الشاميين ذروته فى الأندلس

حتى سنة ١١١ هـ/ ٧٣٠ م وهى التى انتهت فيها إمارة الهيثم بن عبيد الكلابى، وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين الذين يسمون هنا أيضاً بالقيسيين.

وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والحين لإقامة واحد منهم عاملاً على الأندلس، ولكن الحكومة المركزية كانت تسرع بتولية والٍ جديد، وبعد عزل الهيثم أقام عرب الأندلس والياً منهم، ثم اختارت الحكومة واحداً منهم هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فبدأ ولايته فى صفر سنة ١١٢ هـ / مارس – إبريل ٧٣٠ م .

وكان عبد الرحمن من كبار جند الأندلس، ومن أولئك الذين قضوا معظم أيامهم فى ميادين الجهاد فى غالة ، وقد سبق له أن تولى الأندلس سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م ، فلما عادت إليه الولاية للمرة الثانية لم يكن له هم إلا جمع القوات وإعداد العدة للجهاد، وكانت ولايته القصيرة من أهدأ فترات عصر الولاة، ومن سوء الحظ أن عبد الرحمن استشهد فى معركة بلاط الشهداء فى رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢ م .

وعقب ذلك أقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم هو عبد الملك ابن قطن الفهرى الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الأندلس فيما بعد، وكانت ثورة البربر فى المغرب قد بدأت تشتد وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب فى ذلك البلد يتحرج.

ولا تذكر لنا المراجع شيئاً واضحاً عن أسباب ثورة البربر فى الأندلس، وكل ما نفهمه منها أنها كانت أمتداداً طبيعياً لثورتهم فى إفريقية، وقد قيل كذلك إن الثورة اندلعت لأن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضى تاركين للبربر أسوأها أى المناطق الجبلية القاحلة، وذلك غير صحيح فإن أرض الأندلس الطبيعية من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وغير عرب.

ثم إن المسلمين لم يكونوا إذا دخلوا بلداً اقتسموا أراضى الناس فيما بينهم ، والدولة العربية لم تكن دولة نهب وسلب وإنما كانت دولة لها نظامها، وأراضى البلاد المفتوحة كانت لها نظمها التى تحكمها ولم نسمع أبداً أن قبيلا من العرب دخل بلداً فأستولى على مزارع وضياع وطرد أصحابها منها، وإنما الفاتحون كانوا يستقرون فى النواحى جماعات عسكرية تحت تصرف الدولة، وفى مقابل ذلك كانوا ينالون حصة مقررة من الخراج، أما العرب والبربر الذين أحبوا أن ينصرفوا للزراعة فقد زرعوا أراضى باتفاق مع أصحابها على أساس المزراعة أو على أساس آخر ، وفى هذا المجال نجد أن البربر كانوا أكثر اشتغالاً بالزراعة، وقد انساحوا دون حرج فى الأراضى الغنية فى شرق الأندلس وفى أحواض الوديان الغربية وخاصة ناحية وادى ودويرة، وتلك كانت نواح غنية بالأرض والثمرات.

وإنما يمكن أن يقال : إن بعض العرب الذين استقروا فى نواحى الأندلس تمسكو بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظناً منهم أن الدولة دولتهم، وكان معظم هؤلاء من الشامية أى القيسية أى من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الأموية دولتهم ، أما العرب البلديون – ومعظمهم من اليمنية – فكانوا بعيدين عن هذه النزعة لأنهم كانوا قبل كل شىء من أهل معاش وأرزاق وعمل فى حين أن الشاميين كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم.

فى هذه الظروف نفهم أن أخبار ثورة بربر المغرب التى أنكرت سيادة العرب جملة وجدت صدى فى الأندلس، فقام البربر فى النواحى التى كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم وخاصة من جليقية وحوض الدويرة الأراضى فيما بين هذا النهر ونهر تاجة .

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهرى ، كبير العرب البلديين وكان هواه ومعظم من حق من اليمنية ، وكان يحب أن القدرة قامت على

الشاميين فما راعه إلا وهى موجهة إلى العرب جميعاً وبلغه من العرب الهاربين إليه من نواحى اشترف وليون أن البربر أنفسهم فى ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، فخاف الرجل سوء العاقبة.

فى هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيرى ومن معه محصورين فى سبتة بعد هزيمة الأشراف وكانوا يستغيثون بعبد الملك بن قطن دون جدوى، ولكنه أضطر إلى السماح لهم بالعبور ليعاونوه على القضاء على البربر، وعبروا بالفعل بقيادة بلج ابن بشر سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١م ، ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالى ١٠ آلاف حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين ، وكانت المعركة الحاسمة عند وادى سليط Cuadalate قرب الجزيرة الخضراء أوائل ١٢٤ هـ/ نوفمبر ٧٤١ م.

وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر ، وكانت نتيجة ذلك إلى روع بربر الأندلس روعاً شديداً فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة فى الوسط والشمال الغربى ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس ، فإن ألوفاً كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان ينتظر أن يعبروا بالإسلام كل نواحى شبه الجزيرة هاجروا وتركوا كل الأراضى الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين ، فأصبحت هذه النواحى ابتداء من النصف الثانى للقرن الثانى الميلادى أرضاً خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا فيها كيف يشاءون.

وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادى ويصبح حوض الدويرة أرضاً نصرانية.

لقـــد خســـر المسلمون نتيجة لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خســـروه دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم إلى العواقب.

وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب بلج رفضوا العودة إلى إفريقية كما كان الاتفاق بينهم وبين عبد الملك بن قطن ، ووقع النزاع الشديد بين بلج وعبد الملك وانـــتهى بعزل هذا الأخير وولاية بلج بن بشر فى ذى القعدة ١٢٤ هـــ/ سبتمبر ٧٤١م.

وقـــد أنكـــر أهل الأندلس جميعاً رياسة بلج ومن معه من الشاميين القيسيين وقـــاموا عـــليهم وقتلوا بلجا فخلفه شامى شديد العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العامـــلى واشـــتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر فى جانب والشاميين فى الجانب الآخر.

أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى

ونظام الكور المجندة

وأســـرع عـــامل إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى فبدأ ولايته فى رجب ١٢٥ هـــ / مايو ٧٤٣ م . وبدأ الرجل بداية طيبة، فأمن العرب والبربر البلديين على أرضيهم ومصـــالحهم ونظـــر فى أمر يبعد عنهم أذى الشاميين ، واجتهد فى إبعاد أذى هذه المنازعات عن أهل البلاد المسالمين من أسلم منهم ومن لم يسلم، لأنهم أساس عمارة البلاد.

ثم نظـــر إلى الشـــاميين فتبين أنهم جميعاً متجمعون فى قرطبة وإقليمها، وهذا الـــتجمع هو الذى يفتح لهم طريق التدخل فى السياسة وشئون الدولة، ففكر فى أن يوزعهـــم على نواح شتى من الأندلس لا يترلها من البلديين وأهل اليمن أحد، وقد أشـــار عليه بذلك أرطباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مقربة من الأمراء ، وكان يسمى بقومس الأندلس.

وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثـــلث الخـــراج الذى يؤديه نصارى الذمة والمزارعون ، على أن يقدموا للحكومة عدداً معيناً من الجند كلما طلبت ذلك.

وقد تم توزيع أولئك الشاميين على الكور الآتيـــــــــة :

جند مصر	كور أو كشونية وباجه وتدمير
جند حمص	كورة إشبيلية
جند فلسطين	شذونة
جند الأردن	ريه ، أى ناحية مالقة
جند دمشق	البيرة أى غرناطة
جند قنسرين	جيـــــان

وقـــد أصبحت هنا الكور الثمانية بالكور المجندة وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم وأطمأنوا فيها ، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة على النظام الذى ذكرناه، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية فى التنظيم الحربى للأندلس.

ولم يســـتطع أبـــو الخطار الاستمرار على هذه السياسة الحكيمة ، فمال إلى اليمنية وثار النزاع من جديد.

السنوات العشر الأخيرة
من عصر الولاة في الأندلس

حكومة الصميل بن حاتم
ويوسف الفهرى

فى هـــذه الأثناء ظهرت شخصية الصميل بن حاتم بين الشاميين، والصميل شخصـــية فريدة فى بابها تجمع معظم النواحى الإيجابية والسلبية فى كثير من العرب الجاهـــلية الذيـــن دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم، فهو شجاع لايهاب المـــوت، كـــريم يجود بكل ما فى يده دون تردد، شهم لا يرتكب ما يمس المروءة ، وهـــو ســـيد مهذب يعرف كيف يعامل الناس، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكـــنه يعجب بالشعر الجيد، وهو بعد ذلك كله أمى ولا يعرف من القرآن الكريم إلا نـــزراً يســـيراً، وهـــو عنيف فى خصومته شديد الحق لا ينسى ثأره، مسرف فى الـــلذات ما تيسرت لا يتورع عن شرب الخمر، وهو ذكى خبيث لا يفوته أمر ولا يـــتردد فى القضاء على خصومه، وهو كسول فى معظم أوقاته، ولا يوقر شيئاً ولا يؤمن بشىء، وهو لا يتردد فى الإقدام على إرسال خصومه إلى حتفهم دون مبالاة فإذا قام على قدميه لم يبدأ .

هـــذا الرجل نظراً فى أمر الأندلس فتبين – بسبب قيسيته أى شاميته – أن الشـــاميين وحدهـــم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب وحدهم لكنهم كذلك لا يســـتطيعون ســـيادة البلديين لكثرة هؤلاء استعدادهم للدفاع عن أنفسهم فى كل حين، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلا إذا تعاون الفريقان على أى صورة من الصور

فـبدأ أولاً فجمـع الشاميين إلى لواء واحد، هو لواؤه، ثم بحث فى المعسكر الآخر البـلدى عـن زعيم يؤيده ويسوس الأمر بأسمه فى نفس الوقت، فوجد يوسف بن عـبد الـرحمن الفهـرى الذى أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب فهريته، وأخيراً تم الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمـارة ليوسف الفهرى ويكون الصميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر عـلى ذلك فى ربيع الثانى ١٢٩ هـ/ ديسمبر ٧٤٦م، ولم تستقر الأمور لهما إلا بعـد حرب طويلة مع زعيم يمنى يسمى يحيى بن طريف بلغت عصبيته اليمنية مبلغاً جعلـه غـير قادر إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأى سبيل، ولكنه انهزم وقتل فى معـركة شقندة ١٣١هـ/ ٧٤٧م وخلا الأمر بعد ذلك للصميل ويوسف الفهرى حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية الداخل.

وقد هدأت الأحوال هذه السنوات فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتهـا سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م ، وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شـديدة بين العرب فيما بين بعضهم وبعض وبين العرب والبربر ، فإزدادت الهجرة إلى إفـريقية وقل عدد المسلمين فى شبة الجزيرة عما كان، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسـطة، وكـان معظم أهله عرباً يمنيين، فأتقروا فى الأرض وزرعوا وعمروا ولم يتأثروا بهذه الفتن إلا قليلاً .

فتوح المسلمين في غالة
وهي فرنسا

في مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تستوقف ما دامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة، هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالأندلس كان هناك واقع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال ألبرت، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبع مديريات تمتد على ساحل البحر الأبيض من جبال البرانس إلى مصب الرون، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة أرجونه (أرغونة) .

أما ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية اقطانية وعاصمتها بردال أو بردو وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى أود أودو وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة، وفى ناحية الشرق، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية برغندية وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة.

أى إن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالا كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة: بقايا قوات القوط فى سبتمانية التى تسمى أحياناً لا جاليا جوفيكا.

قوات دوقية اقطانية.

قوات إمارة برغندية.

ثم قوات مملكة القرين.

وكـــان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم قطلونيا ودخـــل المسلمون برشلونة وطركونة وجرنده المعروفة باسم خيرونا. وبذلك كان شـــبه الجزيـــرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بـــــن موســـى سنة ٧١٦م .

ولمـــا تـــولى أمـــر الأندلس الحر بن يوسف الثقفى فى ذى الحجة ٩٧ هـــ/ أغســـطس ٧١٦م تقـــدم فدخل أرغونه عاصمة سبتمانية وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين.

ولكـــن حركة الفتح فى غالة بدأت بصورة جدية على يد السمح بن مالك الخـــولانى الذى ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـــ/ ٧٢٠م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحدس، فقاد جنده من الأرغونة إلى طرطوشة واستولى عـــليها، وتقـــدم فحاصر طرطوشة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة فى دوقية أقطانية، فأســـرع الدوق أوده وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين، ودارات معركة عنيفة بـــين الجانبين، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم، وكان ذلـــك فى يـــوم عـــرفة ١٠٢ هـــ/ ٢١ يونيو ٧٢١ م ولم تستطع فلول القوات الإســـلامية العودة إلى أرغونة إلا بفضل قائد ممتاز من طراز السمح هو عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم.

تمكـــن من جميع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغونة، وهناك انتخبه الجند العـــربى عاملاً على الأندلس، وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى التى لم تدم إلا قليلاً .

وكـــان الـــوالى الذى خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبســـة بن سحيم الكلبى فقد تولى فى صفر ١٠٣ هـــ/ أغسطس ٧٢١م ، ومن

حسن الحظ أن ولايته استمرت نحو خمس سنوات فلم تنته إلا فى شعبان ١٠٧ هـ/ يناير ٧٢٦م .

قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من الولاية فى تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيش قادر على مواصلة الفتوح فى غالة، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦ هـ/ ٧٢٥م ، فرتب أمر حاميتى برشلونة وأرغونة ثم سار شمالاً فأحتل قرقشونة وعقد حلفا مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم، ثم تقدم إلى خيمة فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم أتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً فى الاستيلاء على مدن.

فلما أدرك أوكان احتلها إذ كانت أول عواصم إقليم يورجوفيا، ثم أدرك حوض نهر السارون أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون، واحتلت القوات الإسلامية ليون وما كون وشالون، وهنا تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت ديجون والأخرى صعدت مع السارون شمالاً حتى بلغت صانف على بعد ٧٠ كيلو مترا جنوبى باريس، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهى تبعد نحو ٨٠٠ كيلو مترا شمال جبال البرت.

وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة إيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذه الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التى تمت فتوح المسلمين فى غالة خلالها فإن عنبسة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراصة يلى بعضها بعضاً، ثم إن عُرفوا بالكارولنجيين ليحلوا مع الميروفنجيين وكان شارل مارتل، وتسمية المراجع العربية كارل يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصة التى تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دوق ملك الميروفنجيين الغضب.

وأخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٨ م محمـلين بالغـنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين.

ولا نسـتطيع القـول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون، لأنه فى الواقـع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد، ولكنه على أى حـال الفـاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه، وربما جاز تشبيه حملة عنبسة بحملة عقبة الكبرى مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لابد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحى كما أتمت حـملات زهـير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع، ولكن ظروف العرب فى المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة الـتى عهدناهـا فيهـم، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ثم بينهم وبين الـبربر، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها، فقد اقتحمها العرب اقتحاماً وأوغلوا فى داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومتهم.

ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل مارتل – أو كارل – بأنـه لا بـد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى، وبالفعل بدا يستعد للقاء حاسم، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء برغندية واتفق مع رجال سيتمائية ومع الدوق أودو ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين.

ومـن سـوء الحظ أنه وقع انشقاق فى صفوف المسلمين المقيمين فى الثغر الأعلى الأندلسى أى حوض الإيرو فكان له آثر سيىء على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى مونوسـة كان مركزه فى الناحية الغربية من جبال البرانس، ولم يرض المسلمون عن

هـــذا الصهر لأن مونوسة بدأ يأخذ جانبى أودو ورجال أقطانية، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال .

وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقى الذى كان يحكم أرغونة وينظم أعمـــال الجهاد اختلف مع مونوسة اختلافاً شديداً، وكان عبد الرحمن رجلا عنيفاً بـــالغ الاستقامة من طراز عقبة بن نافع، فأشتد مع مونوسة فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعات كثيرة من البربر.

وكان عنبسة قد استشهد فى طريق عودته إذا دهمتهم قوات نصرانية كبيرة فى خوانـــق جـــبال البرت، وقد قتل عنبسة فى اللقاء فى سنة ١٠٧ هـــ/ ديسمبر ٧٢٨م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـــ/ يونيو، يوليو ٧٢٨ م .

وقـــد قـــام عـــذرة بعـــلميات عسكرية قليلة فى غالة ولكن يبدو أن الجند الإســـلامى الذى كان مركزه فى أرغونة كان يقوم بضربات سريعة وغارات عنيفة فى كـــل وجه، ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائم وافرة للمحاربين أنفسهم ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهى من ناحية ترعب الناس من المسلمين وتلقى فى روعهم أنهم أهل غارة وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحية أخرى هى تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية.

ومـــن أسف أن عذره بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله فذاع اسمه فى جـــنوبى فرنسا كلها كرجل سفاك نهاب وتطلع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهية ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارلك مارتل.

أولا : ومـــن حسن الحظ أن قيادة الفتوح صارت فى صفر ١١٢ هـــ/ أبـــريـــل ٧٣٠ م إلى عـــبد الرحمن بن عبد الله الغافقى، فقد استطاع بحزمه وروحـــه العســـكرى أن يضـــبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد، حقاً إنه لم

يســـتطع استعادة مونوسة إلى صفوفـــــة، ولكنه على أى حال أوقف تيار تدهور الفـــتوح إلى غارات، ولو أن عبد الرحمن الغافقى كان أقل عنفاً مما كان فى الواقع لـــربما استطاع أن يصل إلى نتائج أحسن، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلـــتفت إلى سياســـة أو كياســـة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه، وقد خرج عبد الرحمن الغافقى للغزو فى غالية مغاضباً لعبيدة بن عبد الرحمن الفهرى عامل إفريقية، وكانا قد اختلفا فى أمر من أمور الغنائم .

خرج عبد الرحمن الغافقى لحملته الكبيرة فى أوائل ١٦٤هـــ/ ربيع ٧٣٢ م وكان معه ٧٠ ألف جندى تقريباً غالبهم من البربر، فى حين أن الرويات النصرانية تقول: إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل.

ولم يحـــاول عبد الرحمن الغافقى أن يكسب صداقة الدوق أودو، بل لم يعمل عـــلى إيقافـــه على الحياد، وإنما عبر جبال البرت فى صيف ٧٣٢م من ممرات من رتشـــغاله فأقضى رأساً إلى قلب بلاد أودو، فأضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفـــرنجة، واستولى عبد الرحمن على طولوشة مرة أخرى ثم ارتد شرقاً إلى حوض الـــرون فـــأخمد ثورة كانت فى مدينة آرل، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو بردو عاصمة أقطانية، وتصدى له الدوق أودو فهزمه عبد الرحمن هزيمة كبرى على ضفاف نهر الدوردوتى، ثم دخل المسلمون بوردو واحتلوها وأسرع أودو نحو شارل مـــارتل، وتقدم عبد الرحمن فأحتل بواتييه بعد صراع عنيف وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذى تسميه مراجعنا قارل أو كارل فحشـــــد كل مـــا اســـتطاع من قوة للقاء المسلمين واستغفر الناس استغفاراً دينياً فتضخم جيشه وســـار جـــنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه هى قضيته الكبرى لكى يثبت جدارته بالملك من دوق الميروفنجيين.

وكـــان الجيش الإسلامى كبيراً، ولكن لا بالضخامة التى يصفه بها المؤرخون النصـــارى، وينبغى قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ أولاً أن الجيش الإســـلامى رغم شجاعة رجاله وارتفاع قواهم المعنوية كان قد بعد جداً عن بلاد الإســـلام، فإننا الآن على بعد ٤٠٠ كم تقريباً شمال جبال ألبرت، وجبال البرت تبعد ٩٠٠ كم عن قرطبة، وهذه مسافات شاسعة جداً تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمـــداد أمراً عسيراً، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقى رسالة استنجاد إلى قرطـــبة فـــإن حامـــلها لا يصل فى أقل من شهرين فى حين أن قارل " كارل" كان يحارب فى بلاده وبين أهل عشيرته .

ثانياً : كانت الغالبية العظمى من المسلمين البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القباوة على ما ينبغى فى هذه الظروف، ولم يكن لدى عبد الرحمن الغافقى من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف الجيشى ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته.

ثالثاً : كان الوقت خريفاً ، وهو موسم الأمطار الثقيلة فى هذه النواحى، والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر، وكانت تلك المناطق كلها غابات، والفارس العـــربى لم يكـــن يحسن الحرب فى الغابات، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التى تعمل بها فى الجو الدافىء الجاف.

رابعاً : يبدو أن عبد الرحمن الغافقى كان جندياً عظيماً ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق ابن زياد، فقد استمر عبد الرحمن فى سيره حتى لقيه الفرنجة.

وأخـــيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التى كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة.

وقـــد كـــان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو مترا شمال بواتييه فى الطريق إلى تور وجـــنوبى مجرى اللوار، فى موضع قريب من طريق رومانى قديم هو المسمى بالبلاط، وفى هـــذا الموضع قرية تسمى الآن Nounair la Bataille وربما كان موقعها يحدو مكان المعركة.

أمـــا تـــاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م/ أواخر شعبان ١١٤ هـــ واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعـــركة إذن فـــوق الأسبوع مما يدل على أنها كانت معركة حامية والحـــق أن كلا الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حـــتى تجمعت عليهما قوات نصرانية من كل ناحية ، فلم يقتصر الأمر على الفرنجة بـــل كـــان هـــناك كثيرون من أجناس جرمانية أخرى، وآخر مراحل المعركة كان هجومـــاً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامى فأنتهت الغنائم وتزعزع نظام الجيش ووقعت ثغرات نفذ منها الأعداء .

وفى أثـــناء ذلك استشهد عبد الرحمن الغافقى بسهم أصابه، وكان هذا نذير الهزيمة.

وقـــد اســـتمر القتال مع ذلك حتى هبط الليل فتحاجز الفريقان، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان المعركة تحت الظلام، فلما أصبح الفرنجة لم يجـــدوا للمســـلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فأنتهبوها ولم يفكروا فى تتبع المسلمين، فسلمت البقية الباقية منهم وعادت إلى أرغونة .

وعـــندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن الفهرى عامل إفريقية ولى عبد الملك بن قطن الفهرى مثله على أمر الأندلس، فأسرع هذا إلى أرغونة، وفى الطريق أعـــاد الهـــدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال ألبرت وجنوب فرنسا، وقف سلطان المســـلمين فى سبتمانية وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء خلفوا الدوق أودو فى حكـــم نواحى أقطانية وتمكن فى وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة البلاط، ومن حسن الحظ أن كارل شغل عن المسلمين بأعداء كـــثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته فأتيحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطن من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائد من قواده تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهرى.

وقـــد فتح يوسف هذا مدناً من آرل وابنيون وفالانس وليون وثبَّت حدود أمـــلاك المسلمين هناك، ثم اخضع إقليم دوفينيه الذى يمتد شرق نهر الرون ويشمل جـــزءاً كـــبيراً مما يعرف اليوم بالرفييرا الإيطالية، واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان المسلمين على نواحى جبال ألبرت.

ونلاحظ أن المسلمين أتخذوا سياسة جديدة لحكم ما بيدهم من فرنسا، وهى إقامـــة حاميـــات قوية فى المدن وتحصين قلاعها واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب.

هكـــذا كـــان الحال فى ليون وابنيون التى يسميها المسلمون صخرة ابينيون وآرال وغيرها.

ثم جـــاء بعـــد ذلك عقبة بن الحجاج السلولى فأتم إخضاع نواحى برغندية، وكان عقبة مجاهداً عظيماً، فتجددت همة المسلمين للقتال، وأحس كارل أنه لا مفر لـــه مـــن مواجهة المسلمين مرة أخرى، وتقدم بالفعل بجيش كبير يقوده هو وأخوه

شـــلديراند، وسار نحو المسلمين أيضاً ملك الوماردبين، فأضطر المسلمين إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرغونة وتحصنوا فيها .

وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا فى سنة ١٤١ هـــ/ ٧٥٩م وكان ذلـــك فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة عـــلى أملاك إسلامية شمال ألبرت فأخلى هذه الأراضى وأقتصر على شبة الجزيرة الأيبيرية، وكان ذلك خطأ منه، لأن جبال البرت هى مفتاح إسبانيا، وكانت نتيجة تخـــلية تماماً عما يقع شمالها أن أستعاد الفرنجة فيما بعد منطقة قطلونية فأنشأ شرلمان فيهـــا ولايـــة الثغر الإسبانى (لا ماركا هيسبانيكا) أو معنى ذلك أن شبه الجزيرة اقتطع أيضاً من الشرق بعد أن أقتطع من الغرب كما رأينا.

وقـــد بقيـــت للمســـلمين جماعـــات محاربة فى نواحى سبتمانية ودفينية ، وأنســـحب معظمها إلى نواحى جبال الألب الحصينة حيث أتخذوا لأنفسهم مواقع يقومون منها بأعمال عسكرية فيما يجاورها، وقد وصلت أعمالهم الحربية على قلب سويسرا.

ولكـــن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلامية، إنما هى غارات معظم هدفها الدفـــاع عـــن الـــنفس، والسلب ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً تاركة أسماءهـــا على بعض النواحى وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية، ومن أمـــثال امرو وهو عمر واشمة وهو هرثمة وسارازان، وهو اسم عام يراد به المسلمين عامة فى هذه النواحى .

قيام الدولة الأموية الأندلسية

وصـــلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى، وهى ولاية طويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها، فلم نعد نسمع عـــن الخلافـــات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلـــس يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، إنما هو يحتاج إلى حكم قوى نشيط فإن البـــلد خضع للمسلمين ، ولكنه لم يتحول إلى بلد إسلامى بعد، فقد كانت غالبية الســـكان نصرانية، ولو أستمر الأمر على ذلك فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لابد أن يتلاشى، فهو خارج مملكة الإسلام، وبعيد كل البعد عن أرض الخلافة، ولو عـــادت الفتـــنة مـــرة أخـــرى ولو لفترة قصيرة فقد كان تلافى النتيجة المحتومة مستحيلاً.

وقـــد أمكن تلافى هذا المصير بحادث هو من قبيل المصادفات ولكنه كان من أســـعد المصادفات فى تاريخ الإسلام، وذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢ هـــ/ يونيو ٧٤٩ م أقترن بمذابح واسعة النطاق أنزلها العباسيون بالأمويين انـــتقاماً لمـــا فعـــلوا بآل البيت فى الظاهر، وتخلصاً من بقايا الأمويين وأحسائهم فى الباطن.

وقد حُصِد الأمويون دون رحمة ، ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكور عداً البنات، وقد قتل الابن الأول فيمن قتل من الأمويين فى دمشـــق عندما دخلها العباسيون، أما الثانى فقد قتل فى مذبحة دير الجماجم، وفر الـــثالث والرابع، فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما، ففرا معاً ، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، وكان فى التاسعة

عشـــر، وأخ صـــغير له فى الثالثة عشرة، وأختباً فى مكان على ضفة الفرات ثم لجأ على نواتى ليعينها على العبور، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما ففرا على وجهيهـــاً وألقيـــا بنفســـيهما فى المـــاء لعبرا سباحة، وقف الجندى على الشاطىء يدعوانهما إلى العودة ويعداهما بالأمان ، وأرتد الأخ الأصغر ليعود ، وحذره أخوه فلم يسمع، فلم يكن يصل إلى الشاطىء حتى قتل.

أمـــا عبد الرحمن فقد فر إلى قرية بالشام كان قد اتفق مع أختيه أمة الرحمن وأم الأصـــبغ عـــلى أن ترسلا له مولييه بدراً وسالماً بنقود إلى هذه القرية، ومضى الـــثلاثة هـــاربين حتى عبرا معه ووصلا المغرب، وكادا يقعان فى يد عبد الرحمن بن حـــبيب ، ولكنهما نجيا إلى ساحل المحيط عند طنجة، واختفوا فى قبيلة نفرة وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة.

وعـــلى بعد ٦٠٠٠ كيلو متر من بغداد شعر عبد الرحمن بشىء من الأمان، وكانت سنة إذ ذاك عشرين سنة، وكان حرباً أن يقضى بقية عمره فى خمول ودعة ولكـــنه كـــان عالى النفس بعيد المطامح، فأخذ من موضعه هذا يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلة يخرج بها من ذلك الخمول.

وفى سنة ١٣٦ هـــ/ ٧٥٣م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش فى قبيلة مغيلة فى حمايـــة شـــيخها، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه، وكان أمره قد صار على الصـــميل ويوســـف الفهرى، وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه لأنه كان فى جملة عســـاكر موســـى بن نصير، ولكن سالماً لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد إلى المشرق، وثبت معه بدر الذى سيكون له نصيب كبير فى إقامة صرح الدولة الأموية الأندلسية.

وكـــانت فى الأندلـــس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية، ما بين موالى خلفاء كـــالوليد وســـليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموى عامة وموالى

موسى بن نصير وموالى مغيث الرومى ومن إليهما من موالى بنى أمية ، وأنضم إليهم مـوالى القرشيين وقد عرفوا بموالى قريش فكثر عددهم، وكانوا من خيرة مسلمى الأندلس لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة، وكان يوسف الفهرى قد ادعى ولاء أولـئك المـوالى جميعاً عند ذهاب أمر بنى أمية، ووجدوا هم فى ذلك قوة لهم فأندرجوا فى أنصار يوسف، وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول على شىء بفضل هؤلاء الموالى فى الأندلس.

لهـذا أرسل مولاه بدراً برسالة على زعمائهم فى الأندلس وأهمهم ثلاثة: أبو عـثمان عـبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد ، ويوسف بن بخت يرجوهم فيها معاونته على الوصول إلى الأندلس للأستقرار فيها فى ظروف حياة مناسبة لمثله .

ومن أول الأمر فهم الموالى أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس، وكان ذلـك يوافـق أهدافهـم، فأهتموا للأمر وكلموا فيه الصميل بن حاتم لأنهم كانوا يعـرفون أن القـوة فى يـده، ومـن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى، والمفروض أنهم كانوا من مواليه، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكـان يوسـف الفهـرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورة فى سرقسطة قام بها اليمنيون، وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية فى الخروج وهؤلاء يسوفون، ثم خرج الجيش آخر الأمر، وفى أثناء الطريق تبين موالى بنى أمية أن الصميل مسيحى يحتال عليهم، وأنه لا يضمر لعبد الرحمن هذا خيراً، فأنصرف زعماؤهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالى فى البيرة وجيان، وفى الطريق قرروا أن ينفضوا يدهم من الصميل والقيسية المغربية وأن يجربوا حظهم مع اليمنية الكلبية.

وكـانوا موفقين فى هذه الخطوة، لأن اليمنيين كانوا يتوقون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم فى شقُندة ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهرى.

ولهـذا اسـتجاب اليمنيون فى إقليم غرناطة إلى هذا النداء ، وتحمسوا لعبد الرحمن على أمل أن يدركوا الرياسة معه، وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه على الجزيرة ، وهكذا كان .

وعبر عبد الرحمن فى ربيع ١٣٧ هـ/ ٧٥٤ م إلى الأندلس ونزل فى فرضة المنسـر Almunecar فى محافظة غرناطة الحالية، ومنها انتقل إلى طرش Torox وكـانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنسرين وأحد كبار موالى بنى أمية، وهناك توافد عليه الموالى وأتباعهم وذاع الأمر فى الأندلس كله .

وبـلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى فى سرقسطة، وكانت ظروفهما سيئة بسـبب سـوء تعرضهما مع الجند فلم يكن فى أحد حماس حقيقى للنهوض معهما، وأقـبل الشـتاء وهما فى هذا الثغر القصى، ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين: إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش فى سلام.

فى هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن فى طرش يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه والمنضمين إليه من اليمنيين وانضمت إليهم جماعات من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل فى ظل حكم جديد.

وعـندما أقـبل الـربيع بدأت بطون مضر والقيسية تتوافر على الصميل ويوسـف وكانـا قـد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المغربين الشاميين لا يريدون أن يتـنازلوا عن الرياسة التى وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم ونظامه فكثر جمعهم ، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمنيين لاستنهاضهم، فانضم إليـه الكثيرون، وتقدم نحو قرطبة وخرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، فى حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الجانبان للقاء الحاسم.

وقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨ هـ / ١٤ مايو ٧٥٦ م عـند المصـارة وهى طرف قرطبة الغربى، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن،

ووصـــل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على منـــبر قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة فى الأندلس، بل ميلاد عصر جديد فى تاريخ الغرب الإسلامى كله .

واســـتأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنهما، ثم نكث عليه ، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموته مخنوقاً فى سجنه .

أما يوسف الفهرى فقد تشرد فى نواحى الأندلس حتى قتل فى قرية قريبة من طليطلة .

صـــقوة القـــول هذه كانت لمحة سريعة ومختصرة عن بلاد قبل وبعد الفتح الإســـلامى ثم قيـــام الدولـــة الفاطمية معتمدين كل الاعتماد على شيخ المؤرخين الأندلـــس الدكـــتور المرحوم حسين مؤنس والدكتور السيد عبد العزيز والدكتور مختار العبادى والدكتور محمود على مكى والدكتور طاهر مكى وغيرهم.

فلهذا نقدم للمكتبة العربية كتاباً هاماً فى التراث العربية «مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس» للكاتب ابن خاقان فالكتاب يلقى الضوء على بلاد الأندلـــس مـــنذ الفتح حتى القرن الخامس من شتى النواحى السياسية والأقتصادية والاجـــتماعية مع التركيز الهام على رواد الفكر من شتى مجالات المعرفة وتوضيح مصنفاتهم ومؤلفاتهم فالكتاب طفرة جديدة فى مجال الدراسات الأندلسية.

وصاحب هذا العمل هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسى أبو نصر : كاتب ، مؤرخ من أهل إشبيلية ولد فى سنة ٤٨٠ هـــ/ ١٠٨٧م ونشأ فيها ، وكان كثير الأسفار والرحلات. قال ابن خلكان فى وفيات الأعيان عنـــــه «خـــليع العـــذار فى دنياه، لكن كلامه فى تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال» مـــات ذبيحاً بمدينة مراكش فى الفندق سنة ٥٢٨هـــ/ ١١٣٤م ، أوعز بقتله أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين.

ومـــن تصانيفه : «قلائد العقيان» فى أخبار شعراء المغرب ، «رأية المحاسن وغاية المحاسن» أدب ، و «مجموع رسائل» و رسالة فى «ترجمة ابن السيد البطليوسى» أوردهـــا المقـــرى فى «أزهـــار الرياض» ثم الكتاب الذى بين ايدينا . فالكتاب موســـوعة مختصـــرة للـــتاريخ والأدب والآثار والجغرافيا والفقه والحديث وعلوم أخرى.

وقـــد أعـــتمدت فى تحقيق هذا الكتاب على مخطوطات دار الكتب المصرية ومعهـــد المخطوطـــات العـــربية ، إلى جانب الطبعات القديمة وخاصاً ما طبعت فى تركيـــــــــــــا.

وأسأل الله العون والمغفرة ، يا أرحم الراحمين ولله الأمر،،،

مقدمه

مديحة الشرقاوى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف

أمـــا بعـــد حمدا لله الذى أشعر لنا إلهاماً ، وصير لنا إفهاماً ، وسبر لنا برود آداب ، ونشرنا للانبعاث إلى اثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة ، ونبأه منة ونعمة ، وسلم تسليماً :

فأنه كان بالأندلس أعلام ، فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع ووقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا فى مهاوى المنايا، وأنطـــووا بأيدى الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبته فى ديوان ، ولا مجملة فى تصنيف أحـــد مـــن الأعيان ، تجتلى فيه العيون ، وتجتنى منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله إظهار أعجازها، واتصال صدورها بأعجازها ، فحللت من الوزير أبى العاص حكم ابـــن الوليد عند من رحب وأهل ، بمكارمه وأنهل ، وندبنى إلى أن أجمعها فى كتاب وأدركنى من التنشط إلى اقبال ما ندب إليه، وكتابة ما حث عليه ، فأجبت رغبته، وحـــليت بالأســـعاف لبته ، وذهبت إلى إبدائها، وحنيد عليائها، وأمليت منها فى بعض الأيام ، ثلاثة أقسام :

القســـم الأول : يشـــتمل عـــلى سرد غرر الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغـــــاء .

القســـم الـــثانى : يشـــتمل عـــلى محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاة والفهماء.

القســـم الـــثالث : يشـــتمل على سرد محاسن الأدباء، النوابغ النجباء ، وسميـــتها «مطمـــح الأنفس ، مسرح التأنس ، فى ملح أهل الأندلس» وأبقيتها لذوى الآداب ذكراً، ولأهل الإحسان فخراً ، يساجلون به أهل العراق، ويحاسنون بمحاسنها الشمس عند الإشراق والله أسأله الهام القصد، وانفراج بابه الموصد ، بمنه وكرمه .

obeikandl.com